الأميرة علية بنت المهدى

١٦٠ — ٢١٠

للأستاذ سعيد الديوه جى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

غناؤها

ورثت هذا الفن الجميل عن أمها مكنونة التى غرست فى نفسها الطرب منذ نعومة أظفارها فشبت مطبوعة على التلحين والغناء والعزف ، ولم تكن عُلية من المقلدات لغيرها فى هذه الصنعة ، بل إن أشهر المغنين كانوا يسعون إليها ويأخذون عنها . وقد وضعت ثلاثة وسبعين صوتاً ، فكانت من أجل الأصوات التى يتغنى بها فى العصر العباسى . ذلك لأن الأبيات التى غنتها كانت صادرة عن روحها الشاعرة ، وهى أعلم الناس بمعناها ، فكانت أبدع الناس فى معناها . ولها بعض الأصوات كان يتغنى بها الكبير والصغير ، والسوقة والأمير ، والعالم والجاهل ؛ وانتشرت بين جميع طبقات الشعب ومنها الصوت التالى وهو من نظم (وضاح اليمن) فى محبوبته (أم البنين) .

حتام تكتم حزنا وإلاما ؟ وعلام تستبق الدموع علاما؟
إن الذي بى قد تفاقم واعتلى وغما وزاد وأورث الأسقاما
قد أصبحت أم البنين مريضة أخشى بما نقلوا على حماما

وإن شهرة أخيها إبراهيم فى الغناء كانت مستمدة منها ، لأنها كانت كلما وضعت صوتاً استدعت إبراهيم وألقته عليه حتى يتقنه . ثم تأمره أن يعلم جواريه وجواريها هذه الألحان ، فكان إبراهيم يتولى تعليم الجوارى . وأحدثت عُلية ميلا كبيراً إلى الفنون الجميلة بين أعضاء الأسرة المالكة ، كانت هى زعيمة الحركة وأخذعنها أخوها إبراهيم وفاق كثيراً من أهل عصره حتى قالوا : « إنه لم يُرَ فى جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته عُلية وكانت تقدم عليه » كما كان أخوها يعقوب زامراً مشهوراً وأختاها تضربان على العود ضرباً فائقاً .

وقصرها كان أشبه بمدرسة فنون جميلة يتردد فى جوه

« إنى لأدهش من أنه ينبغى أن أذكّر الناقد الأديب أمراً هو أول قواعد النقد ، أمراً كان عليه أن يعرفه كما أعرفه . إن أثر المؤلف يُنقد ويحكم عليه بالجملة لا بمقاطع مأخوذة عرضاً ربما تعارضت وتباينت ... »

ويتناول تينسون Tennyson مسألة السرقة الأدبية، فيقول: « وربما صادفوا معنى واحداً عند شاعرين ، فيقولون هذا سارق وذاك مسروق منه ، مع أن العين البشرية تتأمل الأشياء نفسها فى العالم كله ، فمن الطبيعى أن يتلاقى الشعراء ... » ويذكر أن أديباً صينياً كتب إليه ذات يوم يخبره أن بيتين فى شعره وجدها بألفاظهما ومعانيهما فى قصيدة لشاعر صينى لم تترجم ولم تنقل إلى لغة من اللغات .

ويُدلّل تينسون على عجز النقّاد عن الفهم بقوله :

عزفت عجوزاً ، زوج صياد ، فقدت ولديها فى البحر . فرأيتها فى يوم عاصف تشير بقبضة يدها إلى البحر الهائج وتصيح :

« آه ! تستطيع أن تزأر وتتغضب الآن ! فلشدّ ما أبغض مرآك مظهراً أسنانك البيض .. »

قال : فلو أنى ذكرت ذلك فى قصيدة من قصائدى لنصح لى النقاد أن أصور تجاربى تصويراً طبيعياً لا خيالياً » .

ويضرب تينسون مثلا آخر فيقول :

« قمت برحلة إلى ألبيرنه ، وأنا فى العشرين من عمرى . فأعجبت بشلال عظيم يساقط من علو ألف قدم . فكتبت فى كناشتى إنه يتساقط على رؤد ، كأنه شُرُع من القماش الناعم الرقيق . »

فلما أخرجت ذلك للناس ، أعلمنى ناقد ، أن هذا القماش الذى شبّهت الشُرُع به هو نسيج يستعملونه فى المسارح ، ليقلدوا الشلال المتساقط ، ثم أضاف « وإن السيد تينسون ليحسن صنعاً إن استوحى الطبيعة ولم يستوح المسارح » .

وبلغ تينسون الذروة من المجد ، وقد يعجب القارئ إذا علم أن أول مجموعة شعرية صدرت له بيع منها خلال سنة كاملة نسختان فقط بعد جهد وإعراء .

* * *

وبعد ، فهذى طُرَف من الأسرار .. فهل ترى أعنبت من الأسرار؟

دمشق صبرى الزين النجار

ما أبدعته قريحة علية من الشعر ، وما وضعته من الألحان يزينها عزف إبراهيم وأخته ، ومزمار يعقوب وترديد الجوارى ، كما أنها كانت فى أوقات فراغها تستدعى أخاها نطارحه الألحان أو تأمر الجوارى أن يعرضن أمامها ما أخذنه عنه . وكان الرشيد إذا نظم أبياتاً يبعث بها إلى ملبل بنى العباس فتصوغ لها لحناً وتغنيه بها . أرسل إليها مرة هذين البيتين من نظمه :

يا ربة المنزل بالاراك وربة الطلح والملك
تحرجى بالله من قتلنا لسنا من الديلم والترك

فصاغت فيهما لحناً جميلا . ولما حضر عندها الرشيد أخذت تغنيه هى وإبراهيم أخوها يضرب بالعود ويعقوب بزمر والجوارى يرددن

علمت عُلية يوماً أن الرشيد قد غضب عليها بوشاية حاسد وهى من أعلم الناس بمعالجته . فنظمت ثلاثة أبيات وعملت لحناً فيها وألقتها على جوارى الرشيد وأمرتهن أن يغنين بها فى أول مجلس يجلسه فغنين :

لو كان يمنع حسن العقل صاحبه من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عُلية أربى الناس كلهم من أن تكافا بسوء آخر الأبد
ما أعجب الشىء ترجوه فتحرمه قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى

فطرب الرشيد طرباً شديداً ، وسأل الجوارى عن القصة فأخبرنه بها ، فبعث إليها فحضرت فقبل رأسها وسألها أن تغنيه هى ، فأعادته عليه فبكى وقال لها « لا جرم أنى لا أغضب أبداً عليك ما عشت » ، وبلغها يوماً أن الرشيد وأخاه منصور يتحدثان فى جنة دار الخلد ، فاستدعت جاريتها « خلوب » المغنية ، وأمرتها أن تذهب إلى الرشيد وتغنيه هذا الصوت ، وأن يضرب على غنائها بعود:

حيا كما الله خليلىّ إن ميتاً كنت وإن حيا
إن قلتما خيراً ، فخير لكم أو قلتما غيًّا ، فلا غيًّا

أما تأثير غنائها فكان عظيما ، ذلك أنها كانت تمتاز برخامة صوتها ، وحسن توقيعها ، وتفننها وإبداعها فى كل ما تضع من الأصوات . دخل يوماً « إسحاق بن الهادى » على « المأمون » فسمع غناءً أذهله ، فقال له المأمون : مالك ؟ قال : قد سمعت ما أذهلنى ، وكنت أكذب من أرغن الروم يقتل طرباً ، وقد صدقت الآن بذلك . فقال له المأمون : ألا تدرى ما هذا ؟ قال : لا والله . قال : « هذه عمتك علية تلقى على عمك إبرهيم صوتاً » .

شعرها

نشأت علية منذ نعومة أظفارها مطبوعة على قول الشعر ، فشبت متفننة فى قرضه ، وكانت آية فى الفصاحة والبلاغة . وقد ذكر « ابن النديم » أن لها ديوان شعر قد رآه . ولكن أين هذا الديوان ؟ لا شك أن أيدى البلى أبلته كما أودت بصاحبته . يقول العمولى « إنى لا أعرف لخلفاء بنى العباس بنتاً مثلها ، على أن لها شعراً حسناً جدا ، وصنعة فى الغناء حسنة كثيرة » وما وصلنا من أشعارها يدل على أنها صادرة عن قلب شاعر ونفس صافية وقريحة فياضة وروح نشأت على حب الفنون الجميلة ، فكان كل ما صدر عنها جميلا ، ولهذا كان شعرها مما يغنى به فى صدر الدولة العباسية لرقته وانسجامه ووقعه فى النفس . ومما يدل على انطباعها على قول الشعر أنها كانت تعبر فى شعرها عن الكثير من أغراضها حتى المراسلات الخصوصية .

كانت علية جميلة فى صورتها ، جميلة فى نفسها ، جميلة فى صوتها ، تحب الجمال وتألف الجميل ، فقاض هذا الجمال فى شعرها ، فكان لؤلؤا منضودا تزين به تيجان الخلفاء ، ولشعرها وقع فى النفس وروعة فى القلب ، لأنه صادر عن قلب شاعر فياض .

وعلية تقول الشعر لنفسها تعبر به عما يخالجها من الأهواء والنزعات وما يجيش بصدرها من حب وإجلال لأهلها ، وما توحيه الطبيعة من مناظرها الخلابة ، أو ما تحدثه فيها الحضارة من التنسيق والترتيب . وهى أصدق شاعرة عبرت فى شعرها عما كانت تعانيه المرأة فى ذلك الوقت من التضييق والإرهاق ، وما كانت تقاسيه من لواعج الشوق والهيام فى سجنها الضيق وأغلالها المادية ، وما كانت تولده هذه من انفجار عظيم تردد صداه بغداد . فالكثيرات من البائسات اللاتى أجسادهن مكبلة فى القصور وأرواحهن كانت تتمنى القبور :

بتُّ قبل الصباح إن بت إلا فى إزار على فراش حرير
أو يحل دون ذاك غلق قصور كم تتيل من الهوى فى القصور ؟

ونجد فى شعرها ما كان يدور بين ربات الخدور من لغات العيون والرموز والإشارات تعبر عما تكنه الصدور من الحب والشوق ولا تقدر الألسن أن تبوح به :

تكاتبنا برمز فى الحضور وإيماء يلوح بلا ستور
سوى مقل تخبر ما عناها بكف الغيب فى ورق السطور

أما أشعارها الكثيرة فهى فى العشق والهوى والحب وأسبابه

ووصف حال الحب ودلال المحبوب وظلمه وهجره . وقد أجادت فى هذا الباب وأتت بما لم يتهيأ لغيرها من الشاعرات ، بل إن الشعراء أخذوا يقتفون أثرها ويسلكون سبيلها فى تعليلاتهم فهى تقول :

ليس خطب الهوى بخطب يسير ... لا ينبئك عنه مثل خبير
ليس خطب الهوى يدبر بالرأ ... ى ولا بالقياس والتدبير
إنما الحب والهوى خطرات ... محدثات الأمور بعد الأمور

ولعلية غزل رقيق يستهوى القلوب ، وأشعارها فى هذا الباب كثيرة منها قولها :

أتانى عنك سميك بى فبى ... أليس جرى بفيك اسمى فحبى
وقولى ما بدا لك أن تقولى ... فماذا كله إلا لحبى
فما زال الحب ينال سباً ... وهجراً ناعماً ومليح عتب
فصاراك الرجوع إلى مرادى ... فما ترجين من تعذيب قلبى
تشاهدت الظنون عليك عندى ... وعلم الغيب فيها عند ربى

وعلية إذا مدحت فانها تمدح أخاها الرشيد وابنه الأمين ،وهى بهذا تجزل اللفظ وتحكم المعنى وتوفى الممدوح حقه — كيف لا ؟ وهى ما تمدح إلا نفسها فتعبر عما يكنه صدرها لأخيها من الحب والاحترام وما يملأ قلبها من الفخر بآبائها وأجدادها العظام، وإذا زارها الرشيد استقبلته بقولها :

قل للامام ابن الإما ... م مقال ذى النصح المصيب
لولا قدومك ما انجلى ... عنا الجليل من الخطوب

ثم تثنى فتفخر بالأمين سليل بنى العباس ابن زبيدة والرشيد فتقول :

يابن الخلائف والجحاجحة العلى ... والأكرمين مناسباً وأصولا
والأعظمين إذا العظام تنافسوا ... بالمكرمات وحصلوا تحصيلا
والقائدين إلى العزيز بأرضه ... حتى يذل عساكرا وخيولا

وإذا علمت أن الرشيد قد استزار أختها ولم يكتب لها كتبت إليه تعاتبه :

مالى نسيت وقد نودى بأصحابى ؟
وكنت والذكر عندى رائح غادى
أنا الذى لا أطيق الدهر فرقتكم
فرق لى بأبى من طول إبعادى

وإذا ودعت أخاها الرشيد فانها تودعه بشعرها وقلبها فتقول:

لاحزن إلا دون حزن نالنى ... يوم الفراق وقد غدوت مودعاً
فاذا الأحبة قد تولت غيرهم ... وبقيت فردا والهاً متوجعاً

وإذا طالت عليها أيام رمضان وهى مشغولة بصيامها وقيامها تذكرت أيام لهوها ومرحها وحفلاتها التى كانت تقيمها فى قصرها وحنت إلى ذلك بشعرها :

طالت علىّ ليالى الصوم واتصلت
حتى لقد خلتها زادت على المدد
شوقا إلى مجلس يزهو بساكنه ... أعيذه بجلال الواحد الصمد

وإذا ما رأت تقصيراً من « طغيان » خادمتها أو خيانة من وكيلها « سباع » فانها كانت تهجوهما هجواً لاذعاً مقذعاً لا يخلو من الفحش . ومن أعاجيبها الجميلة أنها حضرت حفلة زفاف ورأت مخنثاً قد تزيا بزى النساء وخضب يديه وكحل عينيه ، وحمر شفتيه ، وهو ينقر بالدف ويغنى ويرقص والنساء قد حففن به يصفقن له ويضحكن عليه وهو مسرور بفعله هذا :

ومخنث شهد الزفاف وقبله ... غنى الجوارى حاسراً ومنقباً
لبس الدلال وقام ينقر دفه ... نقراً أقر به العيون وأطربا
إن النساء رأينه فعشقنه ... فتكون شدة مابهن فأكذبا

وإذا كتبت إلى صديقتها ولم يأتها الجواب كتبت إليها تعاتبها :

ياخلتى وصفيتى وعذابى ... مالى كتبت فلم ترد جوابى ؟
خنت المواثق؟أم لقيت حواسداً ... يهوين هجرى ؟ أم ملالت عتابى؟

وإذا جلست فى حفلاتها ولم تجد من تحب وتهوى شعرت بألم الفراق ولوعة الاشتياق زفرت من قلبها :

ياموردَ الرند قد أعيت قوادحه ... اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس
ماأقبح الناس فى عينى وأسمجهم ... إذا نظرت ولم أبصرك فى الناس

وإذا طال غياب الرشيد عن عاصمته بغداد وخلت حفلات علية منه شعرت بفراغ واسع ونقص فى سرورها فلا يكمل إلا به كتبت تعاتبه :

هرون ياسؤلى وقيت الردى ... قلبى بعتب منك مشغول
مازلت منذ خلفتنى فى عمى ... كأننى فى الناس مخبول

ولعلية قلب ضعيف لايحتمل القهر والهجر ، فكانت تستعين بدموعها فى تخفيف أحزانها وأشجانها وتروح بها عن نفسها وتنفس كربتها :

بليت بقلب ضعيف القوى ... وعين تضر ولا تنفع
إذا ماذكرت الهوى والمنى ... تحدر من جفنها أربع

وكنت تراها تتنقل فى حدائق قصرها الواسعة ، تمتع نظرها

بأزهارها وأشجارها وتصغى إلى ترديد أطيارها وخرير مياهها وحفيف أشجارها ، فينعكس هذا فى نفسها فتردده شعراً ، تقف على الزهرة تتشمها وتناجيها ، وعلى الساقية تردد معها الألحان ، وأمام الحمام تشاركه السجع ، ومع الهزار تشاركه التغريد . ومن أوصافها الجميلة أنها رأت ريحانة تميل مع الريح فمال قلبها إليها فاقتطفتها وقالت :

كأنها من طيبها فى يدى ... تشم فى الحضر أو فى المغيب
ريحانة طينتهـا عنبر ... تسقى مع الراح بماء مشوب
عروقها من ذا ، وتسقى بذا ، ... ممزوجة بإساح طيباً بطيب
تلك التى هام فؤادى بها ... ما إن لدائى غيرها من طبيب

هذا هو الشعر الحقيق الصادر عن شعور خالص لا أثر فيه للتكلف ولا للمبالغة والتهويل . ولها أبيات معانيها مبتكرة ، وتجرى مجرى الأمثال يتناقلها الناس عصراً بعد عصر منها :

رأيت الناس من اتقى ... عليهم نفسه هانا
فزر غباً تزد حبـاً ... وإن جرعت أحزانا

وقولها :

ماينظر الناس إلى المبتلى ... وانما الناس مع العافيه

وقولها :

الحب أول مايكون جهالة ... فاذا تمكن صار شغلاً شاغلاً

عفافها

كانت علية مثالا صالحاً ، وقدوة حسنة للمرأة المسلمة التى تعبد ربها حق عبادته ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، ذات صيانة وأدب ، شاركت الشعب فى لهوه ومرحه وأناشيده ، وترفعت من مفاسده ورذائله . قال أبو الفرج الأصفهانى : « كانت علية حسنة الدين ، وكانت لاتغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة ، فاذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، فلا تأتى بشىء غير قول الشعر » فعلية كانت ترفه عن نفسها بطرق وأساليب تبتكرها هى ، تدفع بها سأم البطالة والعزلة . فتمرح وتلهو وتلعب دون أن تفقد شيئاً من كرامتها أو أن تتعدى حدود ربها وهى تقول : « ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حل عوضاً منه ، فبأى شىء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته » فهى ترى أن أسباب اللهو المباح كثيرة ، ولكن المرأة الضيقة الصدر القليلة العقل ، تتبع كل ناعق ، وتجيب كل داع ، فتقع فى شرك التهتك والعصيان . ومما يدل على ثقتها بنفسها واعتدادها بشرفها وطهارة أخلاقها أنها كانت كثيراً ماتقول « اللهم لاتغفر لى حراما أتيته ، ولا عزماً على حرام إن كنت عزمته ، وما استغرقنى لهو قط ، إلا ذكرت سببى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقصرت عنه ، وإن الله ليعلم أنى ما كذبت قط ، ولا وعدت وعداً فأخلفته » هـذه هى أخلاق درة بنى العباس الفريدة التى أرضت ربها بعبادتها ، وخففت عن نفسها بمرحها العفيف الطاهر . وهذا ما يجب أن تكون عليه المرأة الصالحة التى تتبع كتاب الله وسنة رسوله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » « إن لربك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه »

الموصل — سعيد الديوه جى

تهذيب الكامل

للأستاذ السباعى بيومى

أستاذ الأدب العربى بقسم الدراسات العليا بدار العلوم

الكتاب الذى لا يحتاج إلى تعريف .

فهو كتاب المبرد ، علم اللغة وفقيه الأدب ، وراوية السير وإمام النحو ، وهو الكتاب الذى اعتبره ابن خلدون أصلاً من أصول الأدب وركنا من أركانه ، وهو الكتاب الذى له فى نفس كل أديب كاتباً كان او شاعراً أعظم المكانة وأبلغ الأثر ، وهو الكتاب الذى يجد فيه الأديب ما يرقى أسلوبه ويلطف ذوقه ، واللغوى ما يزيد فى لغته ، والمؤرخ ما يوسع أفق معرفته ودرايته .

والخلاصة أنه الكتاب الذى يجدر بكل أديب أو متأدب أن لاتخلو منه مكتبته

جزآن كبيران ، ٨٠٠ صفحة ، ورق صقيل ، ثمنه ٤٠ قرشاً صاغا

يطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر